رحلة طيبة

عنوان الكتاب : رحلة طيبة
الموضوع : رواية للفتيان
التأليف : عبدالله جدعان
مراجعة لغوية : عمرو سالم سواح
الإخراج الفني : عمرو سالم سواح
تصميم الغلاف : ..... #غرّد_للعالم
الطبعة الأولى : 2018
رقم الإيداع : 2018/ 00000
الترقيم الدوليّ : 978-977-6639-00-0
الناشر : دار تويتة للنشر والتوزيع

tweetpublishing2017@gmail.com

www.facebook.com/Tweetforpublish

٧ش محمد أبوالعطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة

رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز

المدير العام: أ/ رشا العمري

٠١٠١٧٧٩٩٧٩٩/٠١٢٢٥٧٦٢٠٦٦

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

رواية للفتيان

رحلة طيبة

عبدالله جدعان

تويتة
Tweeta
للنشر و التوزيع

الرواية عِبارَة عَنْ سِيرة ذاتِية لبَعضِ العُلماءِ والمخترَعين الذين خدموا البشرية بعلومهم واختراعاتهم وما قدموه من خير ونفع، وبعض الملوك أيضا .

(داخل المدرسة)

أنا صديقتكم "طيبة"، طَالبةٌ في الصف الثاني متوسط، قَبل أكثر من أسبوع قد مضى سلمتُ نشرة مدرسية قمت بإعدادها مثل باقي الطالبات للست ميساء مدرسة التربية الفَنية بالتعاون مع الست أنوار مدرسة التاريخ، وذَلك للمشاركة في المعرض السنوي الذي اعتادت إدارة المدرسة إقامته في كل عام جديد، آملين أن يكون أفضل من العام الذي سبقه.

دخلت باب المدرسة في الصباح الذي سيصادف فيه افتتاح المهرجان، فَهب نسيم حاملا معه عطُورا زكية مختلفة من ياسمين وجوري وغَير ذلك، قَد زرعها العم حماد بستاني في حديقة المدرسة.

امتلأت ساحة المدرسة بالطَالبات وهن يرتدين ثيابا زاهية الألوان وكأنه يوم عرس كبير، بدأت تعلو الأصوات هنا وهناك، كما قُلت لَكم يا أصدقائي إنه يوم غَير عادي، هذا ما شاهدته على وجوه زميلاتي الطَالبات، لأنهن متلهفات لمشاهدة النشرات ومعرض الرسوم في داخل القاعة الكبرى، الكل متشوق لبدء انطلاق فَعاليات المهرجان، فَعجت ساحةُ المدرسة بحركاتهن ولَهوهن وهن يقفن عند باب المدرسة الكبير ينشدن ويرحبن بكل الزائرين وبصوت واحد:

- أهلا. . بالزوار.

بعدها شعرت بالتعب قَليلا من الوقوف، فَتوجهت صوب باب الصف الثاني شعبة ((ألف))، وتبعني بالدخول أيضا كل من: شهد، تبارك، أماني، رحمة، جلَسنا نتحاور، وكانت الأولى شهد التي قَالت بتباهٍ:

- مَوضوع نشرتي كان عن البيئة والتلوث.

أماني ردت عليها بسخرية:

- ماذا؟!.. البيئة والتلوث ليسا بمهمين!؟

اعترضت تبارك على كلام أماني قَائلة:

- كيف تقولين هذا الكلام يا أماني، كوكبنا الأرض يعاني من التلوث والسموم

والتصحر؟

هنا انتفضت وقلت لأماني:

- إذا كان موضوع شهد لَيس ذا أهمية، فَما موضوع نشرتك؟

أجابتني أماني قَائلة:

- عن الكتاب الإلكتروني.

بتعجب كبير سألتها شهد قائلة:

- ما هو الكتاب الإلكتروني يا أماني؟

ارتسمت على شفتي أماني ابتسامة فَخر وقَالت:

- هو ملَف إلكتروني خاص يحتوي على صورة من صفَحات أي كتاب مطبوع.

هززت رأسي واستطردت متَسائلة:

- ماذا يمكنكِ أن تخبرينا أكثَر عن الكتاب الإلكتروني يا أماني؟

ردت عليّ أماني بعجلة:

- هذا ما كنت أود أن أقوله لو لَم تقاطعيني، قارئ الكِتاب الإلكتروني.. نقال مزود ببرمجيات خاصة لقراء الكتب، فَهو يستطيع تخزين ألف وخمسمائة كتاب!!

تنهدت تبارك وقَالَت:

- انظروا يا بنات!؟ أين وصلَت التقنيةُ الرقميةُ، ونحن ما زلنا نتباهى بنشرات مدرسية مصنوعة من قطَع الكارتون!

لَم أتمالَك نفسي وقُلت:

- هذا كله يتوقَف على المسؤولين بالتربية، لأن الكثير من المدارس في الدول المجاورة استغنت عن الكتاب الورقي واستبدلته بالكتاب الإلكتروني أي حاسوب محمول بحجم الكتاب الورقي، أي ما يسمى (آي باد).

ضحكت شهد وقَالت:

- هذه كلها أمنيات، هيا يا بنات لنخرج للساحة، سيبدأ الاحتفال بعد قَليل؟

نهضت كل من رحمة وأماني، وهمَّتا بالخروج، لكن تبارك اعترضت طريقهما وقَالت:

- لا أظُن ذَلك يا شهد، لأنه لا يحق لَنا مشاهدة المعرض قَبل أن ينتهي الزوار من مشاهدته بالكامل.

أماني ردت عليها بانزعاج:

- حسنا، هيا لنخرج ونتجول في الساحة سيبدأ الاحتفال بعد قَليل؟

خرجت من باب الصف كل من شهد وتبارك وأماني ورحمة، و انتهى الزوار من مشاهدته بالكامل .

أماني ردت عليها بانزعاج:

- حسنا، هيا لنخرج ونتجول في الساحة حتى يدق الجرس.

التفَتت شهد صوبي وخاطَبتني قائلة:

- هيا يا طيبة لنخرج سويا إلى الساحة؟

- شكرا لَك، لَكنني متعبة بعض الشيء، سألحق بكن بعد قَليل.

خرجت من باب الصف كل من شهد وتبارك وأماني ورحمة، وانتهى الحوار هنا.

توسدت سطح المقعد الدراسي وغَفَوت!!!

[الدخول إلى الصف]

دخلت القاعةَ الكبرى لوحدي، لم أتمالك نفسي من الدهشة والانبهار، وأنا أتجول بين لوحات لشخصيات تاريخية وعلمية وثَقافية، رسمتها أنامل الست ميساء مدرسة التربية الفنية، ربما أعرف بعضا منها من خلال الست أنوار مدرسة التاريخ، يا ألله!.. هل أنا في يقظة أم في حلم؟؟!! ما أجمل هذه الَلوحات ؟!

سكت للَحظات من الانبهار ورحت أدور بين اللوحات مرة ثانيةً، أتحسسها بيدي، وعدت مجددا إلى اللوحة الأولى والتي علقت على يسار القاعة، تأملتها جيدا!؟ ربما أعرف هذا الشخص الذي يقَف منتصبا شامخا!

[حوار مع آشور بانِيبال]

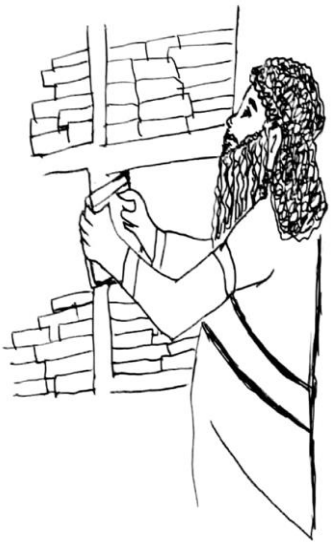

تساءلت مع نفسي:

- يا ترى من هذا؟!

خرج الرجل من وراء اللوحة وقَال لي بمحبة أبوية:

- لا تخافي يا ابنتي فأنا أحب الصغار.

شهقت، خفت، ووقَفت بعيدا عنه بعض الخطَوات.

مشى الرجل واقترب مني قائلا:

ما اسمك يا فتاة؟

أجبته:

- اسمي طيبة.

ابتعدت عنه قَليلا، خائفة بعض الشيء، لكنه هون علي حينما ابتسم في وجهي ثُم قَال:

- لا تخافي يا صغيرتي هذه هي أزياؤنا في تلك السنين، فأنا آشور بانِيبال، الابن الثَالث للملك أسر حدون.

سألته على الفَور:

- هل كنت الوريث الوحيد لَه؟

أجابني بكل هدوء:

- لَم أكن أنا الوارث للعرش، بل أخي الأكبر وهو التوأم شاماش.

استوقَفته قائلة:

- معذَرة، هل حدث بينكما خلاف حول ذَلك؟

أجابني قَليلا:

- نعم، فَهو كان ينتظر في بادئ الأمر أن يخلف أبي ويظفَر بالمُلك.

قُلت لَه:

- هذا يعني أنه كانَ تنافسًا فيما بينكما للوصول للعرش؟

أجابني والحسرة تملؤ قَلبه:

- نعم، تلَقيت معونةً كثيرة من الدول التي كان لَها آنذاك نفوذ فَعال، فَنصبت ملكا.

- وماذا حل بأخيك شاماش بعد ذَلك؟

رد علي قاَئلا:

- أصبح حاكما لبابل.

وكم استمر حكمك؟

أجاب:

- عامين فَقَط.

ضحكت قَليلا ثُم سألته؟

عامان فَقَط؟ على ما يبدو أنَك لَم ترث شيئا من أبيك؟

قال بحدة:

- بل ورثت من أبي أمر الحرب مع المصريين الثائرين، ولكنني لَم أستطع إخماد ثَوراتِهم على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها، وأصبحت مصر بعد عشرين عاما مستقلة استقلالا تاما.

وسألته:

- هل واجهت ثَورات أخرى؟

أجابني بانكسار:

- نعم، حيث قَام أخي شاماش بثَورة ضدي، بعد أن استعان بحلفاء من مختلف البلاد ومنها مدينة عيلام، وخلال سنوات حكمي، توفي أخي وسقطت بابل في يدي.

وبعد صمت قَصير قَال أيضا.

هنا انتبهت إلى العرب والعيلامين الذين ساعدوا أخي بالثَورة ضدي وهزمتهم جميعا والعيلامين.

قُلت لَه:

- هذا أمر يبعث على الأسف حقا، وأعتقد أنك أقمت السلام في فلسطين وفينيقيا

وسوريا، ولكن ما هو الشيء الذي خلدك في كتب التاريخ إلى يومنا هذا؟

أجابني بهدوء واتزان:

- لأنني كنت مهتما بالعلم والأدب والثقَافة، كما كنت مسؤولا عن البحوث العلمية المستفيضة التي كان يعدها رجال العلم عن الآثار البابلية، وقد جمعت العدد الأكبر من الألواح المكتبية التي رتبت وصنفَت بدقَة متضمنةً بيانات تاريخية وملاحظات متعلقة بالفُلك وكلمات للآلهة وتكهنات وصلوات وأناشيد وأساطير عن إنساننا القديم.

- فَقط هذا كل ما فَعلته ليخلدك التاريخ؟

قَال:

- كلا، فَقد أسست أول مكتبة مجمعة بشكل منظم في عهدي بنينوى.

صفقت له بفَرح غَامر وقُلت:

- البشرى لك أيها الملك النبيل، فإن مدينتي نينوى وتحديدا في جامعة الموصل فَعلت مثل ما فَعلت أنت، ولكن بتقنيات ومواصفات جديدة لَم تكن معروفَة في زمانكم.

قَال لي:

- نعم القول والفعل، وما أسميتموها؟

قُلت له:

- المكتبة الآشورية الورقَية والإلكترونية.

ضحك قَليلا ثُم صمت وسألني مندهشا:

- ماذا قلت، مكتبة باسمي في زمانكم هذا؟

أجبته بكلمة نعم.

قال بفَرح غامر:

- هذا أمر جميل يبعث على الفرح والسرور في قَلبي.

-معذرة، هل تسمح لي أيها المَلك أن أسألك؟

قال لي:

- بكل سرور، وهذا من دواعي فَرحي بك أيتها الفتاة الجميلة.

سألته:

- كيف كانت تكتب الكتب في ذَلك التاريخ ؟

أجابني بمودة أكثَر:

- كانت الكتب على هيئة ألواح من الطين الخزفي المحروق، تروي آلاف الألواح وليست للأحداث التي جرت في عهدي منذُ العَام ٦٢٦ إلى٦٢٩ قَبل الميلاد.

قُلت:

- وعلى ماذا تحتوي هذه الكتب؟

أجاب:

- تجمع كل ما تحفل به الحياة اليومية لأهالي نينوى العاديين وديانـاتِهم وآدابهم.

واستحضرت سؤالا في ذهني:

- ما نوع الكتابة؟

قال:

- كانت الكتابة باللغة المسمارية.

ولماذا أطلَقتم عليها هذه التسمية؟

أجابني:

- لأنها تأخذ شكل المخروط.

- هل لي بسؤال أخير يا سيدي الملك؟

قال لي:

أنا حاضر للإجابة عن أي سؤال تودين طرحه؟

قلت:

- يؤكد المُؤرخون أن الإمبراطورية التي شيدتها ما لبثت أن انهارت بعد وفاتك بسنوات قليلة؟

أجابني والحسرةُ تملؤ وجهه:

- صحيح ما تقولين، والسبب في ذلك الخلاف بين أبنائي، ما لَبثَت بابل أن ثارت واستولى البابليون وحلفاؤهم الميديون على مدينة نِينوى .

- إن ما يدهشني يا سيدي آشور بانيبال، أنك تتذكر كل ذلك مع أنها حدثت بعد رحيلك عن هذا العَالم!

- عذْرا لَك يا صغيرتي سأعود إلى مكاني.

ثُم عاد الملك آشور بانيبال إلى مكانه، ودعته ثُم رحت أتأمل اللوحة الثانية.

[الملكةُ الأنيقة]

مما أثَار إعجابي ودهشتي بهذه اللوحة، أنها ترتدي ثَوبا قَصيرا لحد الخصر، وهو عبارة عن سلاسل من الخرز المصنوع من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وهذه السلاسل تنظم بخيوط وتتصل بطَوق حول عنقها ثُم تتدلى هذه الخيوط على أكتافها، أما الأقراط التي تلبسها في أُذنيها فهي أقراط هلالية الشكل كبيرة الحجم، تساءلت مع نفسي كثيرا!: (من تكون هذه السيدة الأنيقة جدا؟)، ما هي إلا لَحظات وتبددت تساؤلاتي، وإذا بالسيدة ذَاتها تخرج من وراء اللوحة! اقتربت مني وأخت تلعب بخصلات شعري وقَالت:

- ما اسمك أيتها الفتاة الجميلة؟

أجبتها غَير مصدقَة:

- اسمي طيبة، وأنت ما اسمك يا سيدتي؟

أجابتني:

- أنا - بو - آبي - شبعاد.

قلت لَها وأنا في غَاية الفَرح:

- إذن أنت الملكة شبعاد، التي اهتمت بجمالها وزينتها التي كانت من القلائد والأحجار الكريمة والملاقط والخرز المصنوع من الفضة، لَم تسبقك أي امرأة في كل العهود.

ردت الملكةُ شبعاد بفرح وسرور:

- هذا يعني أنك معجبة بكل الذي قلتِه؟

قلت لها:

- طَبعا،اختياراتك هذه هي أعظم الدروس في الأناقة واختيار الموضة للعصر الذي كنت تعيشين فيه، فَقد شاَعت شهرتك، وارتفَع نَجمك بهذه الاختيارات الجميلة ولا سيما هذا التاج!!

قَالَت والبسمةُ لا تفارق شفَتيها:

- هو أكليل من الذَهب الخالص على شكل أوراق الصفصاف أو أوراق شجر الزان، ارتفَعت فَوقَه ثَلاث زهرات من مؤخرة الإكليل الخلفية وتنحني حركة الخطوط الثَلاثَة برقة مشكلة أقواسا فيها الأوراق الثَلاثَة.

- حقا هذا الإكليل يضفي مهابة وإجلالا لَك يا مليكتي الأنيقة، لكن ثقي إنك ما زلت معروفَة حتَى يومنا هذا بالأناقَة، لكن هل لَك أن تحدثينا قليلا عن حياتك الخاصة؟

- أنا من ضحايا الزواج المقدس، وهو من الطقوس السومرية التي كانت تقام لضمان الخصب والرخاء في البلاد.

- كيف كنت تجري هذه الطقوس؟

أجابتني قائلة:

- في هذه المواسم كان الكاهن الأعلى أو الملك أو من ينوب عنه يقوم بدور الإله ويتزوج من إحدى الكاهنات التي تمثل بدورها إله الخصب، وذَلك وسط ترانيم وصلوات وطقوس دينية معينة.

قُلت لَها برجاء:

- عفوا، ما زلت لا أفهم شيئا مما تقولين؟

- كان الملك يدفَن مع حاشيته ومن تمثل الإله عشتار، بعد انتهاء مراسيم الزواج المقدس، ولكن كان يخرج من القبر بعد فترة معينة تشبها بقيام الإله تموز من الأموات في فَصل الربيع.

قُلت لَها:

- عذرًا صاحبة الجلالة، صحيح ما قيل عنك؟

ردت على عجلة متسائلة:

- ماذا قيل عني يا طيبة؟

أجبتها:

- إنك كنت إحدى الكاهنات اللواتي قُمن بدور الآلهة (أنانا) في مراسيم الزواج المقدس؟

تنهدت وقَالت لي:

- هذا هو التاريخ يا صديقتي لا يرحم.

طَيبت خاطرها وقُلت:

- كم أنا سعيدة بلقائك، هل لي بسؤال أخير؟

قَالت لي بكل هدوء ورقة:

- هيا قولي يا طِيبة؟

على الفَور سألتها:

- يقال إنك عندما غادرتِ الحياة، دفن معك تسعة وخمسون شخصا وكميات كبيرة من الحاجيات الثمينة والعربات والقيثارات الذهبية وأدوات أخرى، فَهل هذا صحيح؟

- صحيح هذا الكلام، لأن الدفن الجماعي هو إحدى العادات القديمة التي كانت جاريةً في كثير من الحضارات الشرقيةِ، حيث كانت حاشية الملك أو الملكة تدفَن معه بعد وفاته.

قُلت لَها:

- شكرًا على كل هذه المعلومات.

قالَت:

- قَبل أن أعود إلى مكاني، هل تودين قَول شيء؟

- كلا، شكرا لك مرة ثانيةً، لقد كنت في غَاية اللطف والروعة معي، إلى اللقاء.

ثُم لَوحت لي بيديها الجميلتين التي تراصت على زندها حلَقات من خرز مختلف الألوان، وعادت إلى مكانها.

[الملكةُ العارفة]

وجدت كرسيا يقبع في زاوية من القاعة، جلست عليه للحظات وأثَارتني من بعيد اللوحة الرابعة، نهضت ومشيت بضع خطَوات حتى وقَفت أمامها، ويظهر من محياها بأنها امرأة صلبة، وعلى ما يبدو أنها ملكة، وما هذا الطير الذي يقف إلى جانبها؟!

وبينما أنا أحدق بالصورة، أحسست إن شيئا ما خلفي، شهقت خائفة! وإذا بالسيدة تربت على كتفي وتقول:

- لا تخافي، ما هو اسمك؟

أجبتها على الفور:

- أنا طيبة، طالبة في الصف الثاني متوسط، شعبة ((ألف)).

ضحكت السيدة حتى غَرقَت عيناها بالدمع وقالَت:

- أنا بلقيس بنت شراحيل، ملكة اليمن، حكمت في القرن العاشر قَبل الميلاد، واتخذت من مدينة سبأ عاصمةً لمملَكتي، وكنت أعبد الشمس أنا وقَومي.

ضحكت بكل قوتي ثُم سكت وانتبهت لنفسي قائلة:

-عفوك يا سيدتي الملكة؟

ردت قائلة:

- وهل في كلامي هذا سبب يدعو للضحك؟

أجبتها:

- حاشاك من كل هذا، ولكنني تصورتك إنسانة أخرى، ربما السبب هو الطير الذي يقف إلى جانبك في الصورة؟

- ما يقولَه فَمك، لا يقوله عقلك.

- عفوًا، ما تقصدين من هذا الكلام يا مليكتي؟

ردت قائلة:

- كان الأجدر بك أن تسأليني عن هذا الطير.

اهتديت إلى أول خيط لطَرح أسئلتي، وقلت:

- حقا، ما حكايتك مع هذا الطير؟

قالت:

- هذا الطير هو (الهدهد)، وكان جنديا في جيش نبي الله سليمان عَليه السلام.

صفقت بفَرح وقلت:

- وما هي حكايتك مع الهدهد؟

قالت لي:

- بكل سرور، إن النبي سليمان عليه السلام، جمع عددا من الملوك لحضور عرض للحيوانات والطيور والجن والعفاريت الذين كان يعرفُهم سليمان بأسمائهم فَردا فَردا، نادى سليمان على الحيوانات والطيور والجن بأسمائهم، فَلَم يجد الهدهد مما أثار غَضبه وأمر بتعذيبه، حتى أتاه الهدهد قائلًا:

ماذا قال؟!

أجابتني الملكة بلقيس:

- قال: يا سيدي العالم، منذُ ثَلاثَة أشهر مضت وأنا أراجع نفسي وألف العوالم، فَلَم آكل طعاما ولَم أشرب شرابا لأرى إن كان هناك من لَه ملك في العالم ليس خاضعا لَك سيدي، فرأيت مدينةً الغبار فيها أغلى من

الذهب والفضةَ، كالطين في الشارع، أشجارها طَويلةٌ موجودة منذ بدء الخليقة تسقى من جنات عدن، فيها قَوم يرتدون أكاليل من الفردوس على رؤوسهم، لا يقاتلون ولا يرمون النبال، على رؤوسهم ملكة اسمها بلقيس ملكة سبأ، إن سمحت لي أن آتي بملوكهم مكبلين أمامَك.

بلَهفة شديدة قُلت:

- ماذا فَعل النبي سليمان بعدما أخبره الهدهد؟

- أثار كلام الهدهد اهتمام سليمان، فأمر مستشاريه بكتابة رسالة إلى سبأ وعلقوها بطَرف الهدهد الذي طَار بها مع عدد كبير من الطيور متجهًا نحو المملَكة، وبينما كنت في طَريقي للذهاب إلى المعبد، هالني منظَر الطيور التي غَطت الشمس عنها، فاقترب مني الهدهد، ولاحظت أن على طَرفه رسالة فأخذتها، فقرأت رسالةَ سليمان التي جاء فيها!

بكل شوق قُلت:

- هل لي أن أعرف جزءا منها؟

- بكل سرور يا صغيرتي الحلوة، تضمنت الرسالةُ: { سلام عليك مني أنا سليمان وعلى نبلائك وخاصتك، اعلمي إن الله عينني ملكا على العالم، وعلى الوحوش في الأرض، والطير في السماء والجن والعفاريت والأشباح جَميعا، ملوك الدنيا من الشرق للغرب، تأتي لتعظيمي، فإن قَدمت لأكرمنك أكثر منهم أجمعين وإن أبيتِ أرسلت إليك الملوك والجحافل والركبان، إذا ما تساءلتِ من هم ملوك وجحافل وركبان سليمان؟ الملوك هم الوحوش في الأرض، والطير ركباني، والجن والعفاريت جحافلي.

- وما كان رد الفعل عندك بعد وصول الرسالة؟

- عقدت اجتماعا مع المستشارين في مملكتي، وبالنهاية طَلَبوا مني تجاهل الرسالة.

- كيف!.. ماذا تقولين؟

- قالوا لا نعرف شيئا عن سليمان هذا وملكه وهو أتفه من أن يفعل شيئا ضد سبأ!

- وهل اقتنعت بما قالَه مستشاروكِ؟

- كلا يا طيبة، بل أرسلت لسليمان الهدايا وأطيابا وأخشابا وأحجارا كريمة، وأرسلت له ستةَ آلاف من العبيد المملوكين يرتدون ثيابا بنفسجية ومعهم رسالة.

- وهل أخذَ كل الهدايا؟

- كلا يا طيبة.

- وما هو تدبيرك بعد رفض قُبول هداياك وعطاياك للنبي سليمان؟

- بعد أن سمعت بخبر سليمان وحكمته فَقلت لقومي؟

ماذا قلت لقومك أيتها الملكة؟

- سأذهب لاختبار النبي سليمان بأحاجي لأرى إن كان حكيمًا أم لا؟!

ابتسمت وقُلت لها بهدوء:

- عفوا سيدتي الفاضلةُ، يبدو أنك بارعةٌ في مسالة الأحاجي والألغاز والأسئلة المعقدة؟

أجابتني والابتسامة أيضًا على شفتيها:

- نعم، وكذلك النبي سليمان كان يحب الأحاجي ويكثر من تبادلها مع الملوك، وهي علامة على الكفاءة، والذكاء الذي كان يمتلكه.

- لما وصلت إلى النبي سليمان، والحديث الذي دار بينكما؟

- دار الحديث الآتي:

- أنت سليمان الذي سمَعت عن مملكتك وحكمتك؟

أجاب بنعم.

- إن كنت حكيمًا فعلًا، فسأسألك أسئلة وأرني إن كان بإمكانك الإجابة عليها؟

- الله أعطاني الحكمةَ، هات ما عندك؟

السؤال الأول: شيء عندما يعيش لا يتحرك، عندما تقطع رأسه يتحرك؟

- السفينةُ عبر البحر.

قُلت بصوت عال:

- أنت حكيم فعلًا، سأسألك السؤال الثاني: ما هو الذي لَم يمت بعد، ولكن أعطي الحياة؟

- عجل الذهب.

والسؤال الثالث: الميت عاش ويصلي والقمر يتحرك، من هو؟

- المَيت هو النبي يونس عليه السلام، وقَبره الحوت.

سألتها مجددا:

- وهل من اختبارات أخرى عدا تلك الألغاز أيتها الملكة؟

- نعم، عندما رأيت بأن النبي سليمان استطاع حل كل الأحاجي التي سألَتها، قُمت بجلب مجموعة من الأطفال يرتدون ملابس متماثلة وطَلبت منه أن يفَرق بين الذكور والإناث؟

- عذرا للمقاطعة، وهل استَطاع النبي سليمان أن يفرق بينهم؟

- لا تتعجلي يا طيبة، طَلب النبي سليمان أن يأتوه بثَمر البندق وحبوب ذرة ليلقوها على الأرض أمام الأطفال.

على عجلة استوقفتها مستفهمة:

- لكن لماذا؟

انزعجت الملكة بلقيس وقالت:

- أوه! إن لم تصمتي فلَن أكمل، وسأعود إلى مكاني.

توسلت إليها وقلت:

- لَن أسأل مرة ثانية، فَقط سأصغي، هيا أكملي؟

وردت الملكة بلقيس قائلة:

- قام الذكور بجمع ثَمر البندق وحبوب الذرة وتعليقها تحت ثيابهم، ولم يهتموا بكشف عوراتِهم، بينما الإناث علقت الحبوب والثمار على أطراف ملابسهن الخارجية من الذكور على الحشمة.

عذرا سيدتي، وبعد كل هذه الاختبارات ما كانت النتيجة؟

لَما علمت بقوة النبي سليمان ورسالته الدينية! أعلنت إسلامي أنا وقَومي جميعا.

- صحيح كل ما تقولينه، وجاء في القرآن الكريم.. بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

النمل: ٣٨ - ٤٤

- أحسنت أيتها الفتاة الذكية، أرجو أن يكون هذا الإيضاح قد أصبح واضحا لَدى الجميع عن حكايتي مع الهدهد وإسلامي على يد نبي الله سليمان، إلى اللقاء يا طيبة.

ودعت الملكة بلقيس، وعادت لتقف إلى مكانها، درت حول نفسي ثلاثمائة وستين درجة، وأنا أقول مع نفسي:

- آه.. ما أجمل أن يلقى الإنسان ويتكلم مع شخصيات قد مضى على رحيلها مئات السنين.

[معلم الناس المروءة]

عندما عادت الملكة بلقيس إلى مكانها، وقَفت للحظات عند الحكمة البليغة لنبينا سليمان عليه السلام، كيف كانت حكمته؟ وكيف أجاب عن كل الأحاجي والأسئلة والألغاز التي سألتها إياه الملكةُ بلقيس، تنهدت ثُم شعرت بقليل من التعب، جلت بنظري في أرجاء القاعة فَلَمحت كرسيا جاثما يقبع في منتصف القاعة، سرت نحوه، جلست قبالة لوحة أخرى من اللوحات التي تزينت بها جدران القاعة لهؤلاء الشخصيات التاريخية، وإذا بي أسمع عزفا على آلة العود ينبعث صوته من وراء إحدى اللوحات، نهضت مستغربة أبحث عن مصدره، تلفت من حولي، وإذا برجل يرتدي ثيابا زاهيةَ الألوان قَد خيطَت بأدق تفاصيل عصرها، كما احتوت على زخارف وألوانٍ هارمونية، بين الثَوب والعباءة، كما يحمل آلةً للعود، ثم جاء يقترب مني وهو يعزف عليها وما أن وقَف بقربي حتى توقَف عن العزف.

صفَقت لَه فَرحا ودون أي مقدمات هتفت بأعلى صوتي:

- مرحى لَك أيها الفَنان الهادئ، قُل لي بربك من تكون؟

ابتسم وقال لي:

- زرياب.

استغربت أكثَر وسألته مرددة الجواب:

- زرياب ؟!

رد قائلًا:

- نعم، لقبت بزرياب لسواد لوني وفَصاحة لساني، تشبيها بطائر أسود.

تشجعت واقتربت منه أكثَر وقُلت:

- هل تسمح لي بسؤال آخر يا سيدي المهذب الفَنان؟

قَال لي:

- بكل سرور أيتها الفتاة المهذَبة.

توقَف وسألني: ما اسمك يا فتاة؟

أجبته:

- اسمي طيبة.

ابتسم قائلًا:

- عاشت الأسماء.

وأنا ابتسمت أيضا وقُلت:

- حياك الله أيها الطَائر الأسود.

ضحك وأخذَ يقهقه عاليا، وهذا ما زاد ثقتي بنفسي كي أوجه له الأسئلة سؤالا بعد سؤال، فطرحت عليه السؤال الأول:

- حدثني عن حياتك قَليلا؟

أجابني قائلًا:

- نشأت في قصور الخلفاء،حيث الترف، وكان لي اتصال بالموسيقي المشهور إسحق الموصلي وهو من أكبر المغنين في ذَلك الزمان، كنت نديما للخليفة الهادي وهارون الرشيد، حيث استفدت من الجو الغنائي الذي كان يقام في منتديات الخلفاء،ودارت الأيام وبعدها تفوقت على أستاذي الموصلي، ودخل الحسد في قَلبه فَهددني وأسرتي، فَسرت سرا وتوجهت من بغداد إلى المغرب، وهناك أسست مدرسة للغناء والموسيقى.

ابتهجت فَرحا ورددت ما سمعته منه:

- مدرسة للغناء والموسيقى؟!

أجابني بتوكيد:

- نعم، وبهذا اعتبرت أول مدرسة لتعليم الموسيقى والغناء وأساليبها وقَواعدها.

عفوا يا عم، إنني لا أريد أن أطيل عليك بالأسئلة، ما هو الشيء الذي ميزك عن غَيرك من الموسيقيين؟

- لأنني أدخلت تحسينات على آلة العود، أي بمعنى آخر زدت وترا خامسا للعود.

تشجعت وسألته:

- هذا مما يعني أن العود كان له أربعة أوتار فَقط؟

صفق وقال:

- أحسنت يا طيبة الجميلة الذكية.

شجعني إطراؤه لي وسألته مجددا:

- ماذا عن إنجازاتك الفنية الأخرى؟

- ابتكرت الموشح وأدخلت في الموسيقى مقامات كثيرة، لم تكن معروفة من قَبلي، كَما اخترعت مضراب العود من قَوادم النسر بدلا من مرهف الخشب.

- جميل كل هذا، وما هي الفنون التي نقلتها من بغداد إلى الأندلس؟

أجابني مزهوا منتشيا:

- نقلت طَريقتين في الغناء والموسيقى هما:

أولا: طَريقة الغناء على أصول النوتة ومنها جاء الموشح.

ثانيًا: طَريقة تطابق الإيقاع الغنائي مع الإيقاع الشعري.

- نعم القول ونعمَ الفعل يا عم زرياب، لكنَّ سؤالا ظَل في داخِلي.

- قولي يا ابنتي وهذه فرصة لتتعرفي عليَّ وعلى أعمالي؟

- لماذا سمّاك الأندلسيون (معلم الناس المروءة)؟

- وذلك لأنني أدخلت عليهم من عادات جديدة، كوسائل الأناقة والنظافة وآداب المجالسة والمحادثة، كما علمتهم أيضا ارتداء الملابس القطنية البيضاء الخفيفة في فَصل الصيف وارتداء الملابس الحريرية الزاهية في فَصل الربيع.

أصغي بكل اهتمام لكلام زرياب واستوقفته بسؤال قَصير:

- اهتممت بالرجال فَقط دون النساء؟

ابتسم وقال:

- كيف يا طيبة، وأنت لَم تدعيني أكمل حديثي لَك، كما علمت الرجال والنساء أساليب تصفيف الشعر بشكل جميل كتقصيرها دون جباههم وإسدالها إلى أصداغهم، بحيث يظهرون الحاجبين والعنق والأذنين.

دون شعور، صفقت لَه، ورقَصت على البقعة ثُم درت حول نفسي، من شدة فَرحي، وأنا أسمع من زرياب كيف علَم الأندلسيين ارتداء الثياب وتصفيف الشعر.

زرياب انتبه لي جيدا وقَال:

- ما بِك يا طيبة، تمهلي لَم أكمل كلامي بعد.

اعتذَرت منه وقلت:

- عفوا سيدي، أكمل حديثَك أرجوك؟

- كما تفَننت في تحضير أرقى أنواع العطور، وأدخلت أصنافا جديدة من الخضار كالهندباء والكمأة، كما صنعت نوعا جديدا من الحلوى واسميته (الزلابيا).

بدت الدهشة تعقد لساني، حتى استعدت أنفاسي وقُلت بتعجب:

- نحن الصغار نحبها كثيرا يا عم، لكن لماذا أسميتها الزلابيا.

- لَم أسمها بهذا الاسم، لكن على ما يبدو هي تحريفٌ عن الزريابيةِ.

ضحك، وضحكت أنا أيضا وقُلت بأعلى صوتي:

- مرحى لَك أيها الفَنان البارع في فنون الطبخ.

- بل قولي فَن إعداد الموائد وآدابها.

- كيف؟

- لأنني علمتهم كيفية استعمال الملاعق والسكاكين بدلا من الأيدي والأصابع واستخدام السماط.

ضحكت عندما سمعته يقول السماط.

انزعج مني وقُلت له:

- عفوك يا سيدي، فَهذه الكلمة لا أعرف معناها.

- حسن، هو غطاء من الجلد يمد فوق المائدة نظرا لسهولة إزالة السم عنه، كما علمتهم أيضا استخدام الكؤوس الزجاجية بدلا من استخدام الأدوات الذهبية والفضية والمعدنية، ألا يكفي يا صغيرتي طيبة؟

- هل هناك أشياء أخرى؟

- علّمت الأندلسيين طَريقةَ الطهي العراقية، وضرورة الموائد في تقديم الأطعمة بدلا من وضعها دفعةً واحدة واتخاذ السكاكين والشوكات والملاعق، ثُم ترتيب الطعام على المائدة، وأولوية الحلوى في بَدْء الأكل.

أشكرك أيها الفنان الشامل العارف بكل الأشياء.

مشى ثَلاث خطوات ثُم توقَف واستدار نحوي وقال:

- نسيت يا طيبة، أن أذكر لَك أن لي الفضل بنقل ما ورثه العرب مني من فنون موسيقية من بغداد التي دمرها المغول إلى الأندلس، وأن لي عشرة آلاف لَحن وهي أساس الكثير من الأغاني التي استمرت قرونا من بعدي.

قلت له:

- شكرا لَك، فلولاك لفَقدنا أهم الألحان العربية الأصلية.

ثُم عاد ووقَف في مكانه، وأكملت

- تركت ثَروة غنائيةً ضخمة، وتراثا اجتماعيا، منه النظام الاجتماعي ونظام لتسريحة الشعر، ونظام اللباس لدرجة أن بعض المأكولات لا تزال حتى يومنا هذا تسمى باسمك، وكانت أيضا لَك منزلة عند الملوك، وموضع إعجاب الكثيرين من الناس، فَصاروا يتحدثون عنك في مجالسهم واجتماعاتهم، حتى الفلاح وهو وراء محراثه لا يقل ولعه عن ولع الأمراء بك ليس لموسيقاك فَقط، بل لما تعلموه منك، من نظم وقوانين في الحياة ولطف معاشرتك لَهم.

[الوزير الخطَاطْ]

ودعت زرياب، وهمست لنفسي:

- حكايةٌ جميلةٌ عشتها مع الفنان زرياب!، أرضنا العربية أنجبت كثيرًا من الفنانين والأدباء وظَلت أسماؤهم باقية حتى يومنا هذا! رحت أتطَلع للوحة أخرى، وإذا بشيخ جليل يرتدي ثيابا رثة، وإحدى يديه قَد بترت، ولفت بقطعة قماش بيضاء متسخة بغبار التراب وقَد اختلَطَ لَون الدم بالتراب، فأصبح لونه قهويًّا داكنا ربما يميل إلى السواد، نظَرت بتمعن إلى يده اليمنى التي قّد قطعت وسألته على الفور:

- من تكون؟ وماذا حصل ليدك اليمنى يا عم؟

أجابني والحسرة تملؤ صدره:

- ستعرفين كل شيء تباعا يا ابنتي، أنا محمد بن علي بن الحسن بن مقلة، ولدت ببغداد سنة ٢٧٢ هجرية، مهندس ومؤسس قَاعدتي خطَي الثُلث والنسخ.

قلت له:

- ما الذي فَعلته ليبقى اسمك يتردد على لسان كل خطاط في مشارق الأرض ومغاربها؟

أجابني بثقة:

- لأنني بذلت كل ما في جهدي لَيل نهار في القراءة وكتابة الشعر والنثر وفي تجويد الخط.

- فَقط؟

- كلا، بل وضعت القوانين والقواعد لها، بعد أن قَدرت مقاييسها وأبعادها بالنقط وضبطها ضبطا محكما.

عفوا يا شيخنا، وهل لُقبت؟

قال بفَرح:

- ابن مُقلة.

قُلت بتعجب:

- ابن مُقلة؟

ابتسم وأجاب:

- لأن جدي كان يداعب ابنته أمي في صغرها، ويقول لَها ((يا مقلة أبيها)) فَغلَب عليها هذا الاسم واشتهرت به.

وخطَر لي سؤال آخر فسألته:

- ما هو الخبر الذي أسهم في شهرتك؟

أجابني بثقة:

- ما كتبته بيدي كتاب الهدنة التي وقعت بين المسلمين والروم.

- فَقط هذا الفعل؟

بعد صمت قَصير قَال:

- لا، لكنني بعد ذَلك أصبحت وزيرا في عهد الخليفَة العباسي المقتدِر بالله لأربع عشرة ليلة.

قُلت بتعجب:

- أربع عشرة ليلة؟

- نعم يا ابنتي، وبعدها قُبض علي ونُفيتُ إلى بلاد فارس بعد أن صودرت أموالي.

تنهدت وقُلت:

- لكن!.. لماذا؟

فَقال بحنو أبوي:

- لما آلت الخلافةُ إلى القاهر بالله، أرسل في طَلبي واتخذني وزيرا، ثُم اتهمت بمعاضدة علي بن بليق الذي خَرج على الخليفة، فَبلَغني الخبر! ((إن الخليفةَ يريدني))، فَلَم يكن أمامي مفَر سوى الاختفاء والاختباء عن عيون الخليفة وأعوانه.

- وكم من الأيام بقيت على هذه الحال؟

أجاب والحسرةُ تملأ قَلبه:

- بقيت على هذا الحال متخفيا بزي رجل أعجمي، وأخرى بزي رجل فَقير ناسك، وأحيانا بزي امرأة، إلى أن آلت الخلافةُ إلى الخليفة الراضي.

- ماذا فَعلت حينها؟

- استوزرني الخليفةُ الراضي.

شهقت وقلت:

- حمدا لله، لقد نجوت.

أجاب بحزن دفين:

- لا، نتيجةَ للحقد الذي يكِنه الوزير المظفر بن ياقوت لي، والذي كان له تأثير كبير على الخليفة، فَملأ صدره ضدي.

- هل دبر لَك أيةَ مكيدة؟

- نعم، سأقُص عليك حكايتي المحزنة يا ابنتي الغالية.

احمر وجهي من شدة الخجل وقُلت:

- إلى هذه الدرجة؟

- اتفَق مع الغلمان الذين يعملون في دار الخلافة على إلقاء القبض علي فَور دخولي دهليز دار الخلافة، قَبضوا علي ثُم أرسلوني إلى الخليفة الراضي وقَد عددوا للخليفة ذنوبا وأسبابا تقضي ذلك الإجراء.

- قَد أحزنتني كثيرًا على ما أصابك من سوء.

- شكرا لَك، لكنك لَم تعرفي ما هو السوء الأكبر الذي لَحق بي!!

قُلت له غَير مصدقة:

- ما هو؟

- بقيت على هذا الحال عرضةً للمحن والفتن إلى أن أصدر الخليفةُ أمرا بقطع يدي اليمنى ورميها في نهر دجلةَ.

بكيت على ما سمعته، وسالت قَطرات الدمع من عيني، اقترب مني ابن مقلة.

- كما ترين ليس لي سوى يدٍ واحدة، وأنني عاجز عن مسح تلك القطرات

الغاليةُ على قَلبي.

ارتخت قَسمات وجهي وقُلت:

- لكن لماذا؟.. لماذا؟

أجابني بفَخر وخيلاء:

- هذه هي ضريبةُ الإبداع يا ابنتي.

- ماذا فَعلت بعدها؟

- بعد فَوات الأوان عاد الخليفةُ وندم على إصداره ذلك الأمر الظالم بحقي، وأمر الطبيب الحسن بن ثابت بن سنان بن قُرة بمعالَجتي في السجن، وكان قُدوم الطَبيب بالنسبة لي فَرحة لا تعوض.

- لماذا؟

- لأقول له ما يجول في داخلي، لا سيما أن الخليفةَ عاملني بطَريقة قاسية على ذَنب لم أقترفه.

وماذا قُلت لَه:

- قال بانكسار:

- إن اليد التي قُطعت قَد خدمت بها الخلافة ثَلاث دفعات، لثلاثة من الخلفاء، وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين، قطعت كما تقطَع أيدي اللصوص.

- أنا آسفةٌ، وكل ما حدث لَك يدعو للأسف حقا، وهل قال لَك الطَبيب شيئا؟

رد الطبيب الحسن بن ثابت علي بالقول: ((هذا انتهاء المكروه وخاتمة القطوع)) وبعدها ماذا فَعل الخليفةُ الراضي؟

- لَم يرق لَه أن أبقى في السجن، فأرسل من يخلي سبيلي ورشحني للوزارة.

صحيح يا ابن مقلةَ الوزير، كيف استطعت الكتابةَ بيد واحدة؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامه فَخر وقال:

- في أثناء عملي كنت أشد القلَم إلى ساعدي، والكتاب به، وأخذت أمرن يدي اليسرى حتى أجدت الكتابةَ بها.

صفقت بفرح وقلت:

- حمدًا لله، هذا يعني أن المكائد ضدك قّد انتهت؟

قال بنبرة حزن شديدة ممزوجة بألم عميق:

- لا، لَم تنته يا ابنتي، فَقد تعرضت بعد ذلك لمحن قاسية وبشعة لا يحتملها عقَل فَقد أمر الخليفَةَ الراضي بالله بقطع لساني وحبسي! شهقت، ثُم هززت رأسي أسفا وقُلت:

- ماذا!؟.. إنني لا أصدق كل هذا؟

أجابني بأسى وحزن عميق:

- لَم يكن في السجن من يخدمني، فكنت أستقي الماء لنفسي من البئر فأجذب بيدي اليسرى جذبةً أخرى.

وخطَر لي خاطر فسألته:

- هل هناك من صدف عجيبة مرت في حياتك؟

- حسنًا سأحكي لك، توليت الوزارة ثلاث مرات، ودفنت بعد موتي ثَلاث مرات، الأولى في دار الخلافة، ونبش قَبري بناء على طَلب ابني حيث دفنت في داره، ثَم طَلبتني زوجتي ودفنت في دارها بقصر أم حبيب، وسافَرت في عمري ثَلاث سفرات، وأخيرا قَبل أن أودعك يا صغيرتي الحنونة، تركت لَكم عددا من المؤلفات والرسائل والأشعار، وأهمهما كتاب في علم الخط والقلم، مشى بضع خطوات، ثُم التفت إليَّ وقال:

- نسيت أن أخبرك أنني توفيت في السجن في شَهر شَوال من سنة ٣٢٨هجرية.

ثُم راح إلى مكانه، تنهدت وقلت:

- رحمك الله يا ابن مقلة، فَقد عشت حياة مؤلمة قَاسية وغَريبة، ولو كنت موجودا إلى يومنا هذا لَشاهدت بأم عينيك الخطَر الذي أحدق بالخط العربي وسحقه تحت عجلات الخطوط الحديثة التي أصبحت تنتجها الآلة الحاسوب.

[صاحب المسلة]

اقتربت من لوحة أخرى، وقَفت أتأملها، ربما أعرف من هذه الشخصية التي رسمت! رحت أسأل نفسي، كعادتي عندما أقف عند كل لَوحة قُبالها، من يكون؟!

لحظات صمت بددها لي ظهوره فجأة، وعلى ما يبدو هو أحد مُلوك سومر أو بابل، لا أدري ربما أكون متوهمةً، مشى بضع خطَوات حتى وقَف أمامي ورحب بي قائلًا:

- كيف حالُك يا صغيرتي؟

رددت له السلام بنبرة ودود:

- أهلا، ومن تكون؟

ابتسم لي وقَال:

- أنا أول الملوك، وسادس ملوك دويلات منقسمة، كانت تتنازع السلطةَ ببلاد الرافدين، فَوحدتها جميعا، وكونت منها إمبراطورية.

أجبته على الفور:

- حياك الله يا حمورابي.

ازدادت ضحكته وقَال:

- عرفت من أكون؟

أجبته بكلمة نعم، وسألته؟

- ماذا يعني حمورابي؟

ارتسم على وجهه الفَرح وقَال:

- تعني خليل الرب ولَيس الآلهة.

تجمعت أسئلةٌ عديدة في أفكاري، ورحت أتوجه لَه بالسؤال الأول.

- ما يميزك عن باقي الملوك؟

أجاب:

- لَم أزعم أنني إله، على عكس ملوك تلك الفَترة، بل وصفت نفسي بخليل الإله.

- وما هي إنجازاتك؟

- استخدمت فائض القوة لبناء أسوار المدن والمعابد.

- فَعلت كل هذا بسبب خوفك من الغَزوات؟

- كلا، ولكنني دمرت مدينة أشنونة، مدينة العيلاميين وتمكنت من هزمهم.

- وهذا ما يميزك؟

أجابني:

- كلا، ألَم تسمعي بمسلتي العظيمة؟

قُلت لَه بكل فَرح:

- كيف لا أعرفُها أيها الملك النبيل، وهي التي عُدت الأولى في التاريخ، لأنها متكاملة وشاملة لكل النواحي.

رد علي قائلًا:

- أحسنت أيتها الفتاة الذَكية، لأنها ركزت على معاقبة السرقَة وإتلاف الممتلكات والزراعة وحقوق المرأة، وحقوق الإنسان، وحق العبيد والقتل، والموت، والإصابات.

- عذرًا أيها الملك العادل، هل تقبل هذه القوانين الاعتذار أو توضيح للأخطاء إذا وقَعت؟

أجابني بكلمة واحدة: لا.

سألته بلهفة:

- دعني أعرف شيئا عن قَوانين المسلة؟

أجابني:

- بكل سرور يا طيبة، سأورد عليك بعضا من القوانين، خذي القانون رقم ١٩٥ نص على:

{إذا ضرب ولد والده فَعليهم أن يقطَعوا يده}.

خذي القَانون رَقم ١٩٧ نص على:

{إذا قلَع سيد سن سيد من طَبقته، فَعليهم أن يقلعوا سنه}، أيكفي هذا يا ابنتي؟

قُلت لَه: لا؟

قَل لي:

- حسنا، خذي القانون رقم ٢٥٠ نص على:

{إذا عجل وهو مار في الطَريق نطَح رجلا ما وأماته، هذه القضيةَ لا تستوجب التعويض}.

قُلت لَه: هذا يكفي، شكرا لَك يا صاحب الجلالَة، بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن زميلاتي - شهد ورحمة وأماني وتبارك، أقدِّم لَك شكرنا على تلك القوانين التي وضعتها في مسلتك الشهيرة.

غادرني على الفَور وعاد إلى مكانه.

سرح خيالي بعيدا إلى هذا الملك الذي وضع تلك القوانين الحياتية والإنسانية والاجتماعية لينظم حياة الناس ويعلمهم كيف يتعاملون فيما بينهم.

[ابن البيطار]

التفتُّ جانبا إلى لوحة أخرى، فيها شيخ يحمل حزمة أعشاب خضراء اللون وتحت قدميه أعشاب أخرى بألوان حمراء وصفراء! قُلت مع نفسي:

- من يكون هذا؟

ظَهر الشيخ ذاته مبتسما، وبعد صمت قَصير قَال:

- أهلا بك؟

رددت له التحية:

- وبك أيها الشيخ الجليل، أتأذن لي بطَرح بعض الأسئلة عليك؟

أجابني بهدوء المتزن:

- هيا اطرحي الأسئلة التي تريدينها؟

- حدثنا عن نفسك؟

- أنا ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالَقي، لقبت بالمالَقي لأنني ولدت في قَرية اسمها (بينا لمدينا) التي تقع في مدينة (مالقة) في الأندلُس.

فَقلت لَه معذرة:

- لَم أسمع بهذا اللقب أبدا؟

ضحك وقال:

- حسن، ألم تسمعي بابن البيطار؟

ضحكت وهتفت بصوت عال:

- أنت هو، ابن البيطار؟

ابتسم في وجهي وقال:

- أجل.

- عفوا، لماذا سميت بابن البيطار؟

أجاب مبتسمًا:

- لأن والدي كان يعمل طَبيبا بيطريا ماهرا، وبعد صمت قَصير قَال:

- هل تعرفين عني شيئا؟

- إنك صاحب أخلاق سامية، ومروءة كاملة، وعلم غَزير، وذاكرة قَوية عجيبة، أعانتك ذاكرتك القوية على تصنيف الأدوية التي استخلصتها من النباتات والعقاقير المتنوعة، فَلَم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وطَبقتها بعد تحقيقات طَويلة.

- حلو، كلام جميل، من أين لَك كل ذَلك؟

- من مُدرِّسة التاريخ الست نُهَى، كانت دائمًا تحكي لَنا عن شخصيات تاريخية، قَدمت العلم والثَقافَةَ أو الدواء لخير البشرية.

بدت الدهشة على وجهه وقَال:

- شكرا، هذا مديح مبالغ فيه؟

- هذا قَليل بحقك يا ابن البيطار، واعتبرت حسب كتب الطب والتاريخ أنك خبير في علم النبات والصيدلة، وقَال البعض الآخر بأنك أعظَم عالم نبات ظَهر في القرون الوسطى.

قَال بفَرح غامر:

- أحسنت قَولا أيتها الفتاة الذَكية.

- حدثنا قَليلا عن رحلتك العلمية في البحث عن الأعشاب؟

- بدأت حياتي العلمية في الأندلُس، ثُم انتقلت إلى المغرب، ولَما بلَغت العشرين من العمر زرت مراكش والجزائر وتونس كباحث في علم النبات، ثُم انتقلت إلى آسيا الصغرى مارا بسورية ومدنها دمشق وأنطاكية، ومنها إلى الحجاز وغَزة والقدس وبيروت ومصر، ثُم انتقلت إلى بلاد اليونان والروم. عدت أخيرا لأستقر في مدينة دمشق.

- كيف استطَعت يا عم أن تتعرف على النباتات؟

أجابني فَرحا:

- قَرأت مقالات من كتاب بنصه، وكذلك فَعلت بجميع ما أورده (جالينوس)، أي ما صح عندي بالمشاهير والنظَر، وثَبت لَدي بالمخبر لا بالخبر أخذت به، وما كان مخالفا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية والماهية للصواب نبذته ولَم أعمل به.

- هل جمعت أبحاثَك في كتاب؟

أجاب:

- نَعم يا ابنتي الغالية، فَقد جمعتها في كتاب أسميته (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)، وصفت فيه أكثَر من ألف وأربعمائة عقار نباتي وحيواني ومعدني منها ثَلاثمائة صُنعت من النباتات التي لَم يتعرف عليها أي طَبيب قَبلي، كما ذكرت في كتبي طَريقة تركيب الدواء لبعض الأمراض والجرعة المطلوب تناولها للعلاج.

ابتهجت فَرحا بما سمعته وقلت:

- من العقاقير التي صنعتها، هل هناك علاج وصفته لمرض استمر حتى يومنا هذا؟

أجاب بفَخر:

- نَعم، اكتشفت أحد أوائل الأدوية العشبية المداوية للسرطان، عشبة اسمها (الهندباء) وهي نبتة أثبت نجاحها لامتلاكها خصائص مضادة لهذا المرض وعلاجا للأمراض الخبيثة، والآن اسمحي لي أن أعود إلى مكاني أيتها الفتاة الذكية؟

- لَحظة، تمهل يا عم، لكنك لَم تذكر لي: هل ألفت كتبا أخرى عدا كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية.

ابتسم في وجهي قائلا:

- ياه ما أطيب قَلبك، سأورد عليك الكتب التي ألفتها في الطب والعلاج:

- كتاب في الطب.

- الأفعال الغريبة والخواص العجيبة.

- ميزان الطب.

- رسالة في التداوي بالسم.

استوقَفته مرة ثانية وقُلت:

- هل لَديك شيء آخر تطلعني به عن نفسك قَبل رحيلَك؟

وقَف ثُم ألتفت إلي وخاطَبني:

- توفيت في دمشق سنة ١٢٤٨ ميلادية، كان عمري آنذاك تسعا وأربعين، إذ كنت أقوم بأبحاث وتجارب على النَباتات، تسرب إلي الُسم في أثناء أحد اختباراتي لنبتة أحاول صنع الدواء منها.

ودعته، راح ووقَف في مكانه، ثُم وقَفت للَحظات وأنا أستذكر تلك الشخصيات التي تحدثت معها، لا أصدق ما دار بيننا من حديث وقُلت مع نفسي:

- هل نسيت أن تلك اللوحات هي غَير منظورة وغَير محسوسة، فَكيف لي أن أتحدث معها!!؟

[المهندس العظيم]

بينما أنا أتساءل مع نفسي، ظَهر لي شيخ نشيط الحركة قائلا:

- أتعتقدين أن الأمر يبدو غَربيا؟

قُلت مستفهمة:

- ماذا تقصد يا عم؟

أجاب مبتسما:

- عفوا يا صغيرتي، فعلا أنتم لا تحسون بوجودنا لولا الإرث العلمي أو الثَقافي الذي تركناه لكم.

تشجعت واقتربت منه وقُلت:

- صحيح فيما تقول، فأن عقلي مشوش قَليلا، ثُم همست مع نفسي:

- كيف لَم أفَكر فيما قاله!

سألَني بود:

- ما اسمك يا صغيرتي؟

- اسمي طيبة.

- وأنا بديع الزمان أبو العز بن إسماعيل بن الرزاز، والملقب بالجزري.

- شرف كبير يا سيدي، هل لي أن أعرف ما هي صنعتك؟

أجابني بفَخر والابتسامة على فمه:

- ابحثي في كتب التاريخ وستعرفين عني كل شيء.

قُلت متوسلة:

- أنا أصغر من أن أقوم وأبحث في الكتب عنك.

ضحك وواصل كلامه قائلا:

- حسن، أنا مهندس ومخترع.

ابتهجت وصفقت عاليا دون أي شعور بالخجل وقلت:

- مهندس ومخترع!؟

أجاب مرة ثانيةً:

- نعم، أنا هو المهندس والكيميائي والمخترع.

سألته بلهفة:

- هل لَك أن تحدثَنا قَليلا عن حياتك؟

- إنني أعيش في منطَقة ديار بكر على ضفاف نهر دجلَة، وكنت أريد أن أؤمن مياه الشرب لكل من يحتاج إليها.

- وهل لَقيت تشجيعًا من أي شخص؟

- بالطَبع، والفَضل كله يعود للملك ناصر الدين محمود، حيث وجهني لكي أجمع كل مخطوطاتي واختراعاتي ليستفاد منها من يأتي بعدي.

سألته بلَهفة:

- وفَعلت هذا؟

أجابني مسرورا:

- نعم يا ابنتي طيبة، فَقد جمعتها في كتاب أسميته (الجامع بين العلم والعمل) وأخذَ مني وقتا طَويلا من سنة ١١٨١ ميلادية حتى أتممته سنة ١٢٠٦ ميلادية وشرحت فيه أكثَر من ستين اختراعا، لذلك سميت بالمهندس العظيم.

قُلت على الفور:

- سميت بالمهندس العظيم؟!

- نعم، لأن اختراعاتي هذه غَيرت مفهوم الهندسة باستخدامي الترس والدولاب المسنن وذراع التدوير والمكبس وهذا ما مهد الطَريق لنظام الهندسة الحديثة.

- كان المحرك البخاري الذي اخترعه (جيمس واط) يستخدم فَقط لضخ الماء بمساعدة المكبس، وبعدها استخدم ذراع التدوير الذي اخترعته أنت لنقل الحركة من حركة ترددية إلى دورانية.

صفق لي الجزري فَرحا وصمت للحظات وقال:

- أحسنت يا ذَكية، وهكذا استخدم المحرك البخاري لتحريك القطارات والسفن، ومن استخدام ذراع التدوير تم اختراع محرك السيارة في نهاية القرن التاسع عشر.

قُلت بزهو:

- كان عملك أساسا لنهضة العالم الإسلامي ثُم تحولت هذه النهضة إلى أوربا، ونقلت كثير من اختراعاتك إلى أوربا.

- شكرا لَك، كما صممت آلات كثيرة ذات أهمية وأنظمة آلات رفع الماء ذات نظام تنبيه وصمامات التحويل.

بانبهار قُلت:

- كل هذا صنعته يا عم؟

- بل أكثَر، وسأعدِدُ لَك ما صنعته وعلى التوالي:

- المضخةَ ذَات الأسطوانتين المتقابلَتين، وهي تقابل حاليا في زمانكم المضخات الماصة والكابسة.

- نواعير رفع الماء عن طَريق الاستفادة من الطاقة المتوفرة من التيار الجاري من الأنهار.

- صناعة الحيل، هو نوع من الآت مضخة الزنجير والدلاء وهذه الآلات تعطي مزودًا حركيًّا لالآت رفع منسوب الماء.

- صنعت ضاغطة ورافعة وناقلة.

- صناعة آلات قياس ونافورات، وآلات موسيقية، وأخرى لرفع الماء.

هتفت عاليا:

- الله.. الله، ما أعظَم هذه الاختراعات، توقَفت عن الهتاف وسألته:

- هل هناك صناعات تميزت بها أكثر من الذي عددته لي؟

- نعم، صناعة عدد من أنواع الساعات منها: ساعةُ القرد، الرامي البارع، ساعةُ الكاتب، ساعةُ الطَبل، ساعةُ الفيل.

- هذه الساعات تعمل على البطارية يا عم؟

ضحك إلى أن عادت أنفاسه وقال:

- لا يا ابنتي، بل إنها تعمل على الماء، وأخرى تتحرك بفَتائل القناديل.

- حدثني قَليلا عن ساعة الفيل؟

- لَك ذلك، إن ساعةَ الفيل تمثل نموذجا، حيث أظهر أنا فوق فيل ضخم يحمل ساعة مكسوة بحيلة فَنية بديعة تتألف من مجسم فريدٍ من قَانون أرشميدس، وأمام الفيل يوجد الحادي الذي يقوده، ويحوي في بطنه عل القسم الميكانيكي العامل وفق الناسخ الذي يحمل قَلَما نحاسيا يرسم خطوطا على دائرة نحاسية.

وخلفه مباشرة توجد أفعيان صينيتان للدلالَة على القوة مرتبطة بالنظام الميكانيكي داخل الفيل، وإضافة إلى ذلك تحريك الكرات الفولاذية من صقرين يعلوانِها إلى مزهريتين نحاسيتين، مما يؤدي إلى المتعة بالنظَر، ووظيفَتهما نقل مطرقَة الفيل التي تضرب الصفيحة النحاسية معلنةً عن اكتمال الساعة، والآن هل لي أن أعود إلى مكاني يا طيبة؟

تنهدت وأجبت:

- وما عساي أن أقول لَك، سوى أنني كنت سعيدة جدا بالتعرف على إنجازاتك واختراعاتك التي بهرتني، ثُم ودعني وراح يقف في مكانه.

لَحظات صمت وأنا أستذكر اختراعات المهندس العظيم العربي!

[أبو المصباح المتوهج]

كانت اختراعات الجزري بمثابة أساس لنهضة العالم العربي، ومن ثُم امتدت حتى أوربا، وقَفت أتأمل اللوحة ما قَبل الأخيرة، رجل ممسك بمصباح كهربائي متوهج قَد أضاء اللوحة كلها.

خرج من اللوحة مبتسمًا وخاطَبني:

- من أنت؟

- أنا طيبة طالِبة في الصف الثاني متوسط، وأنت من تكون؟

أجابني مبتسما:

- أنا توماس ألفا أديسون.

- معذرة، ما علاقَتك بالمصباح المتوهج؟

ابتسم في وجهي قائلا:

- ألا تعرفين أنني اخترعت المصباح المتوهج؟

- أحقا ما تقول يا سيد أديسون؟

أجابني بثقةَ مطلَقه:

- أجل، في ٢١أكتوبر مِن عام ١٨٧٩ ميلادية، حيث بقي المصباح مضيئا على مدى عدة أيام ولَيال، وبعدها صنعت نظام التوليد للطاقة الكهربائية وتوزيعها على المنازل والشركات والمصانِع.

بدت الدهشةُ على وجهي:

- كيف استطعت ذَلك؟

أجابني:

- محاولات عديدة لأكثَر من ٨٠٤ مرة لإشعال المصباح، وعند المحاولةَ أل ٨٠٥ نجحت في إشعال المائتين وبهذا حولت الفَشل إلى نجاح باهر أخرجت به البشرية من الظَلام.

قُلت بانبهار:

- هل هذا هو اختراعك الأول؟

- كلا، فَقد سبقَته عدة اختراعات منها (الفونوغراف، آلة التصوير السينمائي، مسجل الاقتراع الآلي، البطارية الكهربائية للسيارة، مسجل الموسيقى والصور المتحركة).

- أي من تلك الاختراعات هي التي حققت لَك الشهرة؟

- الاختراع الذي كسبت به الشهرة لأول مرة في عام ١٨٧٧ ميلادية هو جهاز (الفونوغراف).

- أريد أن أعرف كل شيء عن طفولَتك؟

أجابني بمودة:

- لكنها قصةً طَويلةً ومتشعبة.

بتوسل قُلت:

- أرجوك حدثني؟

ابتسم وقال:

- حسنا، لَم أدرس في المدرسة إلا ثلاثةَ أشهر فَقطَ، لأن إدارة المدرسة رفَضت مواصلةَ تعليمي لأنني بليد وغير قادر على الفهم!

باستفهام قُلت:

- قالوا عنك ذلك؟!

- نعم، تصوري هذه هي الحياة.

- تركت المدرسة، لكنني لَم أترك التعلُم والقراءة ولو للحظة واحدة.

- كيف؟ ما زلت لا أفهم؟

- الفَضل كله يعود لأمي، فَقد شجعتني وأعادت لي الثَقة بنفسي، ولَم تصدق ما قالته عني المدرسة، لذا وفَرت لي الكتب العلمية والحسابية والروايات والمسرحيات لكي أقرأها في البيت.

- إنها خير بداية لحياتك، وما الكتاب الذي أبهجك عند قراءته؟

- ملَخص الفَلسفة الطبيعية والتجريبية، يصف الكتاب التجارب العلمية البسيطَة.

- جميل هذا الكلام، ما رأيك أن نغادر هذا الزمن ونعود لطفولتك، تحديدا عندما كنت في السادسة من العمر؟

قال لي:

- طَيب، سأحكي لَك بعضا من المواقف التي كنت بطَلها وأنا صغير.

فَرحت جدا وقُلت:

- كلي آذان لك صاغية؟

- في السادسة من عمري قُمت بأول تجاربي، فأشعلت النار في مخزن للحبوب يملكه والدي فَكانت النتيجة احتراق المخزن!! أخذ يضحك ويقهقه عاليا، وأكمل حديثه بأن قال:

- وكادت النار أن تحرقَني أيضًا، وأراد أبي أن يكافئني على فعلَتي هذه، ولكن يا لها من مكافأة، لَقد أخذَني إلى ساحة البلدة وقام بضربي بالسوط أمام عدد كبير من الناس حتى لا أعود لمثل هذا العمل.

- كان هذا أول درس تأديبي.

غص من الضحك وهز رأسه بالإيجاب، وأضاف قائلًا:

- ومن الحكايات النافعة وفي نفس الفترة الزمنية كنت أنزعِج أنا والجيران من صوت صرير العَجلات التي تحدثه عربة أحدهم حينما يدفَعها أمامه وهي محملة بالخضراوات ليذَهب بها إلى السوق ليبيعها، وفي صباح أحد الأيام لَم يسمعوا صوت العربة، وظَن بعضهم أن الرجل قَد مرض ولَم يذَهب إلى السوق كعادته، لكنهم حينما سألوا زوجته، قالت لَهم: إنه قَد ذَهب إلى السوق، لكنها لا تعرف ما الذي حصل لصوت صرير العربة.

سألته بتعجب:

- فعلا، ما السبب يا سيد أديسون؟

- بقي الجميع في حيرة، ولَم يعرفوا إلا بعد وقت طَويل أن الطفل أديسون هو الذي أنقذَهم من الصوت المزعج كل صباح حينما تسلل من بيته لَيلا ليعرف مشكلَة العربةَ، ثُم أخذت قطعة كبيرة من الدهن من مطبخ منزلنا وشحمت بها محرك العجلات فانقطع الصرير.

فَرحت بما سمعت وقلت:

- ماذا يمكنك أن تخبرني عن طفولَتك بعد؟

- سألت أمي يومًا: لماذا تجلس الإوزة فَوق البيض؟ فَقالَت لي: لكي تفقسها وتخرج منها الطير الصغير، فَذَهبت إلى الحظيرة وتحايلت على الإوزة فأخذت مِنها البيض التي كانت تحضنه، قَلدتها بالجلوس عليه، وكانت النتيجة كسر البيض تحتي وتلطيخ سروالي.

انفجرنا في ضحك عميق متواصل، ازدادت ضحكته وقال:

- اسمعي يا طيبة، هذه الحكاية.

- هيا احك.

- حينما بلَغت العاشرة من العمر، قمت أبيع الصحف والحلوى داخل القطار للمسافرين، وكنت أكسب من وراء ذلك من أربعة إلى خمسة دولارات، أعطي منها دولارا لأمي والباقي أشتري به كتبا علمية وأجهزة لتجاربي العلمية.

ابتسمت وأردفت قائلة:

- حكت لَنا الست خالدة مدرسة العلوم أنك صنعت مختبرا داخل القطار.. هل لَك أن تحدثَني عنه؟

- صحيح هذا الكلام، وفي إحدى المرات كان يسير القطار بسرعة مما أدى إلى سقوط بعض الزجاجيات المحتوية على كيمائيات قابلة للاشتعال واشتعل المختبر وكادت النيران أن تلتهمني، وبعدها قام سائق القطار بمعاقَبتي وقام بصفعي بكل قوته على أذني.

ضحكت وقُلت:

- وماذا فَعلت بعد هذه الحالة؟

ازدادت ضحكته وقال:

- تحول اهتمامي إلى مجال الكهرباء، وبعد تدريب قَصير تعلمت مهنةَ البرقيات وإجادة لُغَة (مورس)، فَحصلت على وظيفة مناوب ليلي، لكن شغفي بالمعرفة جعلني أستغرق في القراءة، ولأنه مطلوب مني أن أرسل الإشارات آليا كل ساعة ليعفيني من تكرار الإرسال حتى أنصرف للقراءة، نتج بعد ذلك أنني اخترعت التلغراف.

قُلت بتعجب:

- ما هو اختراعك الجديد؟

- سجلت باسمي ما يقارب من (١٠٩٣) اختراع.

- ولَعل هذا هو السبب الذي اعتبرت به من بين ثَلاثة هم أكثَر العظَماء تأثيرا في الحضارة الإنسانية منذُ بدايتها حتى الآن.

- صحيح هذا الكلام، لأنني كنت أعشق التجريب، وكنت أقوم بألف تجربة قَبل أن أخترع شيئا، أي بمعنى آخر فإن هناك (٩٩٩) طَريقةَ لا تؤدي إلى الهدف المنشود.

- إنك رددت عبارة شهيرة عن النجاح والفشل هل لَك أن تقولَها لي؟

- طَبعا وبكل سرور، قُلت إن الكثير من الفاشلين في الحياة هم أشخاص لَم يدركوا كم كانوا قَريبين من النجاح عندما قَرروا الانسحاب.

- هل أفهم أن رحلَتك كانت صعبة وعشت فَقيرا تتخطى كل فَشل بدلا منه نجاح؟

أجابني مسرورا:

- صدق-ت يا طيبة.

- هل لَديك شيء آخر تضيفَه عن نفسك؟

- كرمت ومنحت جوائز عدة وأهمها جائزة نوبل للفيزياء، وحصلت على خمسةَ أوسمة عالَمية من دول وجامعات متقدمة في الشأن العلمي، كما صنعت لي تماثيل، وصدرت عني طَوابع بريدية، وسميت باسمي معاهد وكليات، وابتكروا زهرة باسمي، كما أطلَق الأدباء عني في تلكَ الفَترة اسم (عصر الكهرباء)، والآن يا طيبة الغالية لَم يبق لي سوى أن أودعك وأعود إلى مكاني.

- إنك تتذكَر أحداثا حدثَت بعد رحيلك عن هذه الدنيا؟

سار خطوات ثُم التفَت إلي وقال:

- نسيت أن أقول لَك بأنني توفيت يوم ١٨أكتوبر مِن عام ١٩٣١ميلادية عن عمر ناهز ٨٤ عاما، ولَم يجد الأمريكيون وغَيرهم وسيلة للتعبير عن تقديرهم واحترامهم للإنسان الذي أشعل وهج النور في المصابيح الكَهربائية سوى أن تطفأ المصابيح نفسها في تلك الليلة حزنا وحدادا على وفاتي!!

ثُم اختفى عن نظري وعاد إلى مكانه.

[صانِع المَوت]

وقفت! درت حول نفسي، وكدت أقع على الأرضِ، جالَت عيناي على كل اللَوحات التي علقت على جدران القاعة، اقتربت من اللوحة الأخيرة، تأملتها جيدا!

قُلت مع نفسي: (على ما يبدو أن هذه الشخصية إما أن يكون عالما أو مخترعا، إنه يرتدي ثيابا تعود إلى القرن الثامن عشر)، خرج الشخص ذاته، اقتربت منه وسألته:

- مرحبا يا سيدي؟

أجابني بهدوء:

- أهلا يا صغيرتي؟.. وأنت ما اسمك؟

- اسمي طيبة.

- وفي أي مرحلة دراسية؟

- في الصف الثَاني متوسط، وأنت ما اسمك؟

- أنا ألفريد نوبل، ولدت في ٢١ أكتوبر مِن عام ١٨٣٣ ميلادية، بالعاصمة السويدية ستوكهولم، ووالدي يدعى عما نوئيل، وله هواية خاصة!

سألته ملهوفة:

- مؤكد هوايته لُعبة كرة البيسبول أو التزلج على الجليد؟

ضحك وأخذ يقهقه ثُم قال:

- بل كانت هواية اسمها (الهواية المدمرة).

رددت ما قاله باندهاش كبير:

- ماذا قُلت؟!.. الهواية المدمرة؟.. ماذا تقصد؟

- على ما يبدو عندك شغف كبير بمعرفَة الأمور الصغيرة والكبيرة.

- عفوا، أريد تفسيرا لكلامك.

- لأن عملُه كان يتطَلب منه تصنيع الألغام البحرية، وبعدها كمهندس مدني في إنشاء الطُرق، كما قُلت لَك هوايته الخاصة والَتي يمكننا إطلاق لَفظ (الهواية المدمرة) عليها، فَقد كان مخترعا للمتفَجرات.

تنهدت وقلت:

- وتعلمت منه تلك المدمرة، أليس كذلك يا سيد نوبل؟

- كلا، ولكنني عملت مع والدي في بناء مصنع للمتفجرات من مادة (النيتروكليسرين) شديدة الانفجار، وقام بتصنيع نحو ١٤٠ كيلو غرامًا من هذه المادة، لكن المصنع انفَجر وتسبب في مقتل أخي الأصغر وأربعة من الكيميائيين والعمال، مما ترك بالغ الأثَر في نفسيتي.

قلت بعصبية:

- وماذا فَعلت بعد تلك الحادثة؟

أجابني بانكسار:

- عملت جاهدا لأجل ترويض هذه المواد المدمرة في تمكين الإنسان من استخراج الثروات من المناجم وباطن الأرض، وقَدرتها على تسخير الطبيعة للإنسان لشق الطرق وحفر الأنفاق.

- وماذا حصلت من كل هذا؟

- اخترعت الدِينامیت (ت - ن - تي) في سَنة ١٨٦٦ ميلادية.

- اعتقدت بأنه سيستخدم من أجل الأمور السلمية؟

رد باعتذار:

- هذا ما خطَر ببالي، وحصلت على براءة اختراع، ولاقى هذا الاختراع رواجا من قبل شركات البناء والمناجم وحفر الأنفاق، فَتهافَت الديناميت في جميع أنحاء العالم، وقُمت بإنشاء ٩٠ مصنعا وسجلت ٣٥٠ اختراعا!

- هذا أمر يبعث على الأسف حقا، لكن التاريخ حكم حكمه عليك.

قال باعتذار:

- لماذا؟

- لَو أدري أنني سألتقي بك لَجلبت معي لَك أفلاما وأقراصا مدمجة لتري ما فَعلته القنبلةُ اللعينةُ.

قال متعجبا:

- كيف؟.. أريد توضيحا أكثَر يا طيبة؟

- تسببت في كوارث بشرية في العديد من الحروب واستخدمت على نطاق واسع فيها، فَبلَدي العراق!.. قَتلى وجرحى دمرتهم القنابل، أتمنى أن يعود هؤلاء أحياء ليقولوا لك: لماذا...؟

لم يسمعني، وأخذَ ينظُر إلى الأرض وقال:

- اختراعي كان مفتاحا للجميع سواء أرادوا سلما أو حربا، وإن النفس البشرية لَيست بهذا القدر الملائكية. ظننت أنها تندفع نحو السلام دون الحرب، إنني أعتذر منكم بني البشر جميعًا.

أخذتُ أبكي وأقول:

- فات الأوان يا سيد نوبل، ماذا يفيد اعتذارك بعد كل هذه السنين واختراعك أكل الأخضر واليابس للبشر وكل ما يحيط به من جماد ونبات وحيوان؟!

أجابني والحسرة تملؤ قلبه:

- الذَنب لَيس ذَنبي، لأن معظَم الدول لا تجد سلاحا جديدا إلا تسعى وراءه من أجل استخدامه في فَرض القوة والسيطَرة على الآخرين، وتحقيق رغَباتها بالتملك وفَرض القيود.

ثُم تنهدت وقُلت:

- لكنك لَم تبال، فَقد حققت من وراء ذَلّك ثَروة طائلة، وتكدست عندك الأموال وأصبحت من أغنى الأغنياء في العالم.

قال بعصبية:

- صحيح كل هذا الكلام يا طيبة، خلّفت ثَروة قدرت بحوالي ثلاثين مليونا، وتركت وصيةً من بعدي، أن تستثمر هذه الثَروة بعد وفاتي وتوهب على شكل جوائز مادية قَيمة تمنح للمبدعين والمتميزين في عدد من المجالات، ومن هذه المجالات (الكيمياء، الفيزياء، الطب، الأدب، السلام العالمي)، والجائزة اسمها (نوبل) والتي يخصص لها حفل سنوي رسمي ضخم يقوم فيه ملك السويد بمنح الجائزة لمستحقيها في فروعها المختلفة.

- متى كانت وفاتك؟

- يوم ١٠ من ديسمبر سنة ١٨٩٦ ميلادية.

- هل لَديك شيء آخر تضيفه عن نفسك؟

أجاب بكلمة كلا، وهمَّ ليعود إلى مكانه، اعترضت طَريقه وصرخت بأعلى صوتي:

- قف مكانك يا سيد نوبل؟ وأخذت أنادي:

- يا سادة يا كرام؟ ملوكا وعلَماء؟ هيا اقتربوا؟ هيا اقتربوا؟

وعلى الفور لَبَّى ندائي كل من (حمورابي، ابن البيطار، الجزري، أديسون).

هتفت بهم وقُلت:

- أيرضيكم ما فَعله السيد نوبل؟ بالله عليكم كونوا الحكم؟ ماذا تقولون عن اختراعه للديناميت؟

اقترب حمورابي من جهة الشمال معاتبا:

- لماذا فَعلت هذا يا سيد نوبل؟ أتعرف مسلتي، القانون رقم ١٩٧ على ماذا نص؟

احمر وجه نوبل من شدة الخجل وقال:

- على ماذا نص؟

أجابه حمورابي بحدة:

- إذا قَلَع سيد سنا لسيد من طَبقته، فَعليهم أن يقلعوا سنه، فَما بالك أنت يا سيد نوبل

وقد أهلكت الملايين من بني البشر باختراعك هذا؟

كذلك اقترب ابن البيطار منه من جهة اليمين معاتبا:

- لماذا يا سيد نوبل؟ أنا صنعت أكثَر من ثلاثمائة دواء من النباتات لمعالجة البشر وأنت قَتلت الملايين منذ اختراعك هذا؟

أخذَ يدور نوبل هازا رأسه أسفا واستطرد قائلا:

- لكن يا سادة يا كرام، لم يصبح الأمر بيدي مثلما تتصورون، لقد خان الكثيرون اختراعي من بعدي.

وقَف أمامه الجزري المهندس العظيم وأمسكه من كتفه وهزه عدة هزات صائحًا به لماذا يا سيد نوبل؟ لماذا؟ أنا غَيرت مفهوم الهندسة باستخدامي الترس والدولاب المسنن والذراع الطويلة وآلات رفع الماء والساعات بأنواعها وذراع التدوير والمكبس، فأنا اختراعاتي هذه أساس لنهضة العالم العربي ثُم تحولت هذه النهضة إلى أوربا.

أديسون معاتبا:

- لماذا يا صديقي؟ لماذا؟ كنت أتمنى أن يكون اختراعك فيه فائدة للبشرية مثلما أنا اخترعت ألفا وتسعمائة وثلاثة اختراعات، لكن الجميل في كل اختراعاتي هو المصباح المتوهج الذي أضأت به ظَلام العالم، ثُم استدار نحو الجميع وقال:

- إنني بالنيابة عنه أعتذر منكم جميعا يا ملوكًا ويا علماء، إنني أعتذر.. أعتذر.

صاح كل من حمورابي وابن البيطار والجزري بصوت عال أخذَ يطغى على القاعة: هذا لا يجوز، الاعتذار ليس كافيًا. وأخذت تتردد العبارات (لَيس.. كافيا) أشبه بالصدى بين جبلين!!.

[ما بعد الحلم]

دق جرس الدرس، فزعت من نومي العميق، فَتحت عينيّ شيئا فشيئا وتساءلت:

- أين أنا؟.. أين نوبل؟ أين حمورابي؟ أين باقي الشخصيات التي كنت أتحدث معها؟

دخلت كل من شهد وأماني وتبارك ورحمة وهن فرحات، قالت شهد:

- ما بك يا طيبة؟

- نعم، تمنيت ألا يدقَّ الجرس لأكمل رحلَتي!

جميعهن تعجبن من كلامي. قالت تبارك:

- أية رحلة يا طيبة؟

على الفور عاتبتني رحمة أيضا وقالت:

- ذَهبت في رحلة مع عائلتك إلى شمال العراق ولم تحدثينا عنها؟

ضحكت ثُم نهضت وقلت لَهن:

- مهلا.. مهلا.. يا صديقاتي العزيزات، كل ما في الأمر، بعد خروجكن من الصف نمت وحلمت بأنني دخلت إلى قاعة العرض، الله ما أجمل أن يلتقي الإنسان بشخصيات قَد مضت عليها مئات السنين، فعلا كانت رحلتي رائعةً، فَقد تعرفت عن قُرب على كثير من العظماء في التاريخ، تعرفون لم أصدق أنني قد التقيت بتلك الشخصيات في المعرض.

قالت شهد:

- عفوا، يا طيبة، عن أي شيء تتحدثين؟

تبارك ساخرة:

- ربما كانت تحلم بفيلم سينمائي جميل.

- بل أكثر جمالًا من كل الأفلام، وبصراحة عشت معهم، كأنها شخصيات من فيلم سينمائي عن شخوص خدمت البشرية بالعلوم والفنون والاختراعات.

رحمة:

- أوضحي لنا أكثر يا طيبة؟

- ما إن ندخل إلى قاعة العرض، سوف أحدثُكم عن تلك الشخصيات، وإن لم تسعفني الذاكرةُ، حتما سنلجأ إلى الست أنوار مُدرِّسة مادة التاريخ، فهي التي ستجيبكن عن كل أسئلتكن، أو الكلام الذي دار بيني وبين تلك الشخصيات، قالت شهد:

- كانت فعلا رحلةً جميلةً.

قالت أماني:

- مبروك لك الرحلة يا طيبة.

قالت رحمة:

- إنني متشوقةٌ لرؤية المعرض.

هتفت أماني بصوت عال:

- هيا لندخل إلى قاعة العرض.

وسرنا جميعا إلى باب القاعة لنرى بأم أعيننا صور الشخصيات التي رسمتها المُدرِّسةُ [ميساء] مدرسة التربية الفنية.

تمت بحمد الله